الشرقيين يسمونها « النهقة » وزعم غيرهم انهم يصلحون المياه المرّة بالفرقد (Peganum retusum) وهي شجرة صغيرة شائكة تنمو بقرب العيون وتثمر ابان الصيف حبوباً حمراء حلوة الطعم. ولعلّ ذلك ما حمل بعض المحدثين ان يجعلوا مرحلة الاسرائليين الاولى عند عين جنوبي سويس على ثلاث ساعات فيها تُدعى عين الفرقد وقال فرديناند دي لسبس في خطاب القاهُ في ننت (Nantes) عن ترعة السويس في ٨ كانون الاول ١٨٦٦ : « ان العرب كانوا يلقون في المياه نوعاً من فصيلة الشوك يحمل ثمرًا فيلطف مرارة الماء » وعندنا انهُ لا يزال في هذه المسألة غوامض واسرار لم يفتح العلم بعد مُقفلها. ولعلّهُ اقرب الى اليقين ان يُقال انّ الله الذي ارشد عبدهُ موسى الى الشجرة جعل فيها ايضاً قوّة عجيبة لتصلح طعم تلك المياه الغزيرة لتكفي تلك الجماهير المجمهرة وتروي غليلهم. وقد رأى الآباء في هذه الشجرة رمزًا الى صليب الربّ الذي ازال بعذوبته مرارة مياه الحياة التي كان اجراها الله صافيةً من الفردوس لبني البشر ليحييهم فجاءت الخطيئة الاصليّة وكدّرت تلك المياه وحوّلتها الى مرارة وبقيت على رنوقها ريثما اعادها عود الصليب الى صفائها

رحلة مهاجر لبناني

من بيروت الى البرازيل

للاديب حبيب افندي فريحه البشلاني

سافرنا من بيروت مساء يوم الاثنين في ٢٨ حزيران سنة ١٩١٠ في باخرة افرنسيّة من شركة « ماجري مريتيم » قبل غروب الشمس بقليل فكان منظر لبنان وهو يغيب عن اعيننا من اجمل ما تقع عليه العين والشمسُ ترسل آخر شعلة من نورها على اعالي جبالهِ فارسلنا معها آخر وداعنا الى كل الاهل والاحباب الذين فارقناهم

وكان عدد الركّاب على ظهر الباخرة يبلغ المائتين ما عدا ركّاب الدرجات الثلاث واكثرهم من حوالي الشام وجهات حوران ولم يكن اللبنانيون عدداً كبيراً

وكان بعضهم يقصد القطر المصري . ولم يحدث لنا في سفرنا حتّى مرسيلية ما يستحقُّ الذكر. وفي ٤ تمّوز اضاء يوم الاحد بنوره فتمنّيت لو أُتيح لي ان احضر القداس الالهي في احدى كنائس لبنان ولكن هيهات ونحن على متن البحار. قمتُ امشّي على سطح السفينة واخذتُ بيدي كتاب الاقتداء بالمسيح لاجد في مطالعته قوتاً لنفسي في ذلك اليوم الجليل اذ وقعت عيني على منظر ما كدتُ اصدّقهُ فرأيت في قاعة السفينة الوسطى كاهناً قد لبس حلّة التقديس ونصب مذبحاً لتقدمة الذبيحة الالهيّة وحولهُ بعض الكاثوليك من ذوي الدرجة الثانية اتوا ليسمعوا قدّاسهُ. فطرتُ فرحاً لهذا المنظر ودعوت رفقتي ليحضروا معي تلك الرتبة فتوفّر عدد الحضور حتّى خلتُ المحلّ كنيسة صغيرة أُعدّت لخدمة سيّد البحور وربّ المفاوز المانعة فشكرت الله الذي يسّر لي لسماع القداس وانا فوق البحر وبين امواجهِ الخطرة

وفي اصيل ذلك اليوم ظهرت لنا جبال كرسيكا ولم تقدر العين ان تميز تربتها هل هي مكسوّة بالاغراس ام ارض جرداء. لبعدها عنا وغابت الشمس وهي امام اعيننا وجبالها شامخة كجبال لبنان العزيز ثم اختفت. ولم نعد نشاهد ارضاً مدة اربع وعشرين ساعة حتى ظهرت لنا جبال ايطاليا ومنظرها بهيج للغاية فهي مع وعورتها وعلوّها وانخفاضها مكسوة بالاحراج والاماكن القريبة مغروسة بالكروم فيروق العينَ منظرُها وكان البحر في ذلك اليوم هادئاً للغاية والنسيم يهوّم فيُسمع لهُ صوت لطيف. اما الشواطئ التي كانت حوالينا فهي جبلية فلا ترى ساحلاً ولا سهلاً بل منحدرات تنتهي عند البحر وسلاسل الجبال تتصل بالماء. ولكن مظاهر العمران والحياة بادية في هذه الاراضي لانها مكسوة بالاغراس ولا شك ان في تلك البلاد يداً تعمل بنشاط وقوة والجبال ليست مستحجرة بل كلها ذات تربة جيدة تقوم بالاغراس واعاليها مثل سفوحها مخضرّة نضرة. وكانت الباخرة تمرُّ قريباً من الشاطئ حتى امكننا ان نميز تربة الارض الحمراء وقد تمثّلت لاعيننا منحدرات « صليا » الوطن العزيز ومناظرها الطبيعيّة فكانت اجمل ما شاهدتُ. والغريب يتمثل امامهُ جبال بلادهِ فيشعر في نفسهِ بحنين

وبعد ان قطعنا بوغاز ايطاليا بقليل ترآت لنا قرى عديدة من حولنا وجزر

وتلال قائمة في وسط البحر ترى في احداها المعامل المستطيلة البناء حتى ظهرت لنا مدينة متينة ومدينة رية او راجيو اللتان أصيبتا في العام الماضي بتلك الزلازل التي جعلتها قاعاً صفصفاً

ولم تزل بيوت رية من خشب بطبقة واحدة مسقفة بالتوتيا لكن منظرها جميل تكتنفها كروم العنب والزيتون اما مسينة فالعناية مبذولة بتجديدها لعظم شأنها كفرضة بحرية. وقد شاقتني هذه المناظر الفتانة لا سيما عند الصباح والبحر هادئ يمرّ فوقهُ النسيم فيبدو لدينا منظران بهيجان البحر كانهُ قطعة اطلس منبسطة امامنا والجبال الخضراء قد ارسلت عليها والشمس نورها فانعكست صورتها فوق صفيحة البحر فزادتهُ زرقةً وزادت الطبيعة جمالاً. ولا عجب اذا نبغ الشعب الايطالي في الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فان من سكن هذه البلاد البحرية رسخت فيه ملكة الشعر لما يرى حولهُ من الاتساق والترتيب والمحاسن الطبيعية

ومررنا بجبل النار المسمى « سطرنبولي » وهو قائم في وسط البحر. وآخرُ ارض تنتهي عندها حدود ايطالية هي جبال سردينية. وبعدها اخذنا نمرُّ امام اراضي فرنسة واول ما وقعت اعيننا عليهِ جزيرة كورسكا وطن الرجل العظيم نابوليون. ثم مررنا بطولون وهي موقع بحري محصَّن بالقلاع والمدافع وفي اليوم نفسهِ تراءت لنا اعالي قبة سيدة النجاة في مرسيليا فانحنيت اذ ذاك مسلماً على امّ النجاة لاننا وصلنا بخير امام تمثالها وهو مادٌّ يديه يستقبل الزائرين. ثم ظهرت البيوت واخذت السفينة تدور قليلاً لتدخل المضيق وبدا لنا منظر مرسيليا العام ومررنا بجانب جزيرة « شاتوديف » (Château d'If) وفوقها قلعة وقبالتها ربوة عالية فوقها القلاع الحصينة وحولها المدافع ترى من فوق الباخرة مصوَّبة الى البحر وعلى مقربة من هذه الربوة قام قصر لويس الرابع عشر يدلّ ظاهرهُ على قدمهِ وهو على النسق الشرقي مؤلف من اربع طبقات وموقعهُ من اجمل مواقع مرسيليا لانهُ يشرف على البحر والمدينة

﴿ مرسيليا ﴾ وخرجنا من الباخرة الى الجمرك ففتشوا حوائجنا واستقبلنا اصحاب اللوكندات عند الباب فركبنا عربة ونزلنا في نزل نظيف. وقد رأينا كثيراً من مناظر مرسيليا الجميلة كحديقة الحيوانات والساحة العمومية وكثيراً من

القصور العالية. واعظمُ هـذه المباني واعجبها واشدها تأثيرًا في النفس الكنيسة الكاتدرائيَّة فان القلم يقصر عن وصف ما فيها من الدقَّة والاتقان في الصناعة وهي اشبه بقلعة بطبك من حيث ضخامة الاعمدة وعلوّ القبب وليس في داخلها شيءٌ من الزينة غير ان الذي تقف عنـدهُ الافكار حائرةً هو الدقة مع الضخامة اذ ترى في وسط الكنيسة الاعمدة الكبيرة كالرولـي وقد قامت فوقها حنايا الاقبية وترى من جهة اخرى نقوش الفسيفساء الملوّنة المختلفة الاشكال ترصّع ارضها ترصيعاً بديعاً. وقد اعجبني التمثال الذي اقامهُ اهل مرسيليا لرئيس اساقفتهم السيّد دي بلزُنس (de Belsunce) الذي تفانى في خدمة رعيَّتهِ ايَّام الوباء الذي دهم مرسيليا سنة ١٧٢٠ وقد كتب تحتهُ « تذكار عرفان الجميل للمسنيور دي بلزنس من اهل مرسيليا » وقد وصف كثير من الكتبة مناظر مرسيليا فلا حاجة الى وصفها الان

من مرسيليا الى جبل طارق

وفي ١٦ تموز اقلعت بنا الباخرة من مرسيليا وكانت الشمس قد غابت ولم يبقَ منها سوى ذرّات تلقي على الوجود نورًا ضئيلًا وكان البحر هادئاً ينشق عبابهُ امام السفينة فلا يحرك ساكناً اما السفينة فاسمها « اسبانيا » وهي من سفن شركة « ترانسپورت ماريتيم » الفرنساوية طولها ١٢٠ مترًا وحمولها ٣٠٠٠ طن تقطع في الساعة ٢٢ ميلًا وقد قضينا تلك الليلة ساهرين وتعرَّفتُ ببعض السوريين

برشلونة وفي صباح اليوم الثاني اقبلت السفينة على مناظر جميلة من الغابات والكروم الخضراء تحوط مدينة متسعة الارجاء كثيرة المعاثر واقعة على شاطئ البحر وهي مدينة برشلونة احدى مدن اسبانية فلمَّا رست الباخرة واراد بعض الركاب النزول الى البر لم يُؤذن لهم لتفشّي مرض الجدري في البلد فحُرمنا من مشاهدة مدينة زانها العرب قديماً بآثرهم والوقوف على محاسنها

وقد ترآت لنا من السفينة مسلَّة عالية يعلوها تمثال الرجل العظيم « كرستوف كولمبس » فاتح العالم الجديد. ثم قبب الكنائس الكثيرة العاليـة القديمة وهي مسدَّسة الشكل مبنيَّة على الطرز الشرقي القديم ولعلها كانت مآذن. ومنظر المدينة العمومي يـدل على انها كانت عامرة بالابنية الضخمة ولو لتصف الامبان لجلوها

عاصمة مملكتهم لما حوتهُ من العظمة والمنعة فضلًا عن انها مجرية وفيها المعامل التي تناطح الجو بدخانها وهي كثيرة منتشرة في سفح الجبل الذي حولها

اما موقعها ففي منبسط من الارض ممتدة طولًا على شاطئ البحر من الجنوب الى الشمال تحوط بها سلسلة من الجبال وقد انتشرت في بطونها وسفوحها البيوت وحولها الحمائل النضرة والجنائن والكروم اليانعة التي تصدر منها الى الخارج ضروب العنب والخمور المشهورة

ولما كان ذلك اليوم يوم الاحد رأينا زوارق الاسبان البيتيَّة الحديثة الطرز تسير بقوة البخار من حولنا وفيها الرجال والنساء يتنزهون في ذلك النهار الذي صفا جوُّهُ واعتلَّ هواؤهُ وهدأت امواج البحر وسكنت عوامل الطبيعة وكانت تلوح على القوم سمات اللطف والجمال وكنا نعتبرهم من سلالة اولئك العرب الذين احتلُّوا الاندلس ونشروا فيه التمدُّن الشرقي . وكان الركَّاب يحيُّونهم على سبيل الهزل برفع الطربوش فيرقصون لهُ طرباً ويردُّون التحية بابتسامة

ثم سارت بنا السفينة ووجهتُها بلنسية وكانت الشمس مشرقةً ذات منظر مهيب والبحر هادئاً تلمع زرقتهُ فتسحر العيون وانَّ من يقف امام منظر الطبيعة الساحر يتهيَّب الصانع وعليه فانحنيتُ باحترام امام مظاهر الخلَّاق وآثاره العظيمة . وسرنا ساعات امام جبال عالية مخضرَّة وليس هناك سهول بل تلال وجبال واقفة عند المياه

بلغنا بلنسية قبل الظهر وهي من مدن اسبانيا تمتدُّ طولًا من الشمال الى الجنوب وموقعها في سهل فسيح وقد سارت السفينة امام البيوت مدة ساعة ونصف ولم تقف امامها الَّا قليلًا فلم نتمكن من النزول اليها وهي لا تقلُّ عظمةً عن برشلونة . وكانت تتراءى لنا عن بعد الجبال الشامخة فتذكِّرنا في عرض البحر جبال لبنان العزيز والغريبُ يحنُّ الى بلاده فيطبق كل ما يراه في طريقهِ من الجمال على جمال بلاده فقلت : «ايه يا وطني العزيز — فيك يرتع الكريم النفس الطاهر القلب القانع من الحياة بقليل من العيش بسلام وهناء . ولولا طمعي بالمال الذي تدفعني اليه الحاجة الَّا فارقتُ جمال طبيعتك ورغد عيشك انت وطن السعادة الارضيَّة وانني احسد من يتوسَّدون ترابك ويلتحفون بسمائك وعندي ان القاطنين في ودياتك ومغاورك

بقناعة لهم اسعد حالًا ممن يسكنون القصور المملوءة شقاء. سلام ايتها البلاد التي انبتت هذه السعادة سلامَ نفسٍ فارقتكِ وهي حاملة روح اخلاصك العجيب هل يجذبني حبُّكِ اليك فأرجع وانضم الى القسم الذي انفصلت عنه بالجسم لا بالروح؟ لكنني لست اعلم ما يخبأهُ القضاء لي وما يكون من وراء هذه الحياة الجديدة التي انا قادم عليها

﴿ مالقة ﴾ وفي ٢٠ منه لما طلعت الشمس ومدّت حبال اشعتها فوق امواج البحر المتحركة تداعبها مداعبة الوليد الذي ينشدها انشودة الصباح فيحمل النسيم نغماته المطربة. وبعد ان مررنا بجبال وقرى اشرفنا على مدينة مالقة ومنظرها يدلّ على انها قديمة وتحققنا ذلك لمّا رست الباخرة ونزلنا اليها وجلنا في شوارعها

وبينا كان عامّة اهل مالقة يستعطون منا في الطريق والاسواق وعلى ظهر الباخرة وقت الغداء وثيابهم رثّة كما تدلُّ مبانيهم على الفقر والشدّة كنا نرى النساء والرجال من ذوي الثروة يمرّون بجانب الباخرة عند الماء للنزهة وعلى النساء الملاآت وهي بقية من عادات العرب الذين سكنوا تلك البلاد

وليس في مالقة سوى اثرين هما الكنيسة الكاتدرائيّة وبقية قلعة قديمة ممتدة اطلالها وسراديبها من راس الجبل حتى اسفله وهي فوق اكمة علوها ثلاثمائة متر واقعة شرقي المدينة. وليس هناك سوى اطلال من آثار الدول العربيّة كما اظنّ وهي مؤلفة من جدران متردمة متقابلة يحوطها كلّها سور قديم ويتصل اليها من المدينة مع بُعدها طريق بل سرداب لا يقل طوله عن ثلاثمائة متر محاط بجدارين متردمين سقط سقفها ولقد افنى الدهر نقوشها الناتئة ولم يبقِ منها الّا اثارًا قليلة. وبينما كنت ابحث عن كتابة عربيّة عثرت على قطعة مربعة منحوتة في وسطها دائرة من حولها نقوش على الزوايا وهي من الحجر الناصع البياض يستدل منها انها من آثار العرب وهناك قطع كرنيش كانت موضوعة فوق الجدران. واذا وقف الناظر في راس الجبل رأى آثار هذا البناء وفي اسفله جدار ضخم لا يقلّ عن المائتي ذراع طولًا وفي سفح الجبل مغارة بنى صدرها بالحجارة الكبيرة وهي منقوشة في الصخر وفيها غرف صغيرة فقلت في نفسي سبحان من تزول امجاد العالم امامهُ ومجدهُ دائم لا يزول

اما الكنيسة فزرناها قبل ان جلنا في المدينة فرايتُ منها مشهدًا عجيبًا وقبل

وصفها اقول: اننا لما استأذنا في الدخول مشى امامنا ولد يدلنا على الباب الخارجي لان الباب الكبير كان قد أقفل فاوصلنا اليهِ ونادى سيدة هناك ففتحت الباب وادخلتنا الى فسحة بجانب الكنيسة ثم دخلت امامنا الكنيسة فشاهدنا العجب العجاب من هذا البناء الضخم والنقوش التي استوقفت ابصارنا فانحنيت باحترام امام المذبح الكبير حيث كان القربان المقدس مذجوراً ثم سجدت وتلوت صلوة الزيارة وكان في رفقتي شابٌ مسلم اديب كنتُ استأنس بصحبتهِ لادبهِ وشهامتهِ فجعل يتقلّد حركاتي كلها فانتعشتُ في قلبهِ شواعر الدين

والواقف في باحة الكنيسة يرى انها بُنيت على شكل صليب فيشاهد عن شمالهِ ويمينهِ سوقاً تمتدُّ من الشمال الى الجنوب ومثلها من الشرق الى الغرب. وتظهر هذه الهندسة في سقف الكنيسة لانهُ على شكل صليب حُمل فوق اعمدة ضخمة من الحجر الملوَّن تعلوها القناطر والكرانيش. وقد رُسمت على دوائر القناطر صور القديسين والملائكة وهي كانها ناتئة وحُليت الدوائر بالذهب والالوان الزاهية. وحول الاعمدة بجانب الجدران بُنيت الهياكل وقد بنوا في وسط الكنيسة قسماً قائماً بنفسهِ وهو اشبه بقاعة ترى في داخلها الكراسي المرتبة وهي من خشب الجوز مكسوَّة بالحرير الملون وفي صدرها كرسي كبير فخيم خُصَّ برئيس الاساقفة. وفي وسط القاعة منضَدة عليها كتب الصلاة والموسيقى الكنسية مجلدة تجليداً قديماً فاخراً. على ان هذا البناء المختص بالارغن الكبير الذي وُضع فوقهُ مؤلف من ثلاثة جدران لانهُ يطلّ على الهيكل الكبير وهو ماثل امامهُ. اما الارغن فقد وُضع على قاعدة ممتدة على طول الحائط الشمالي وقسم منهُ على الحائط الجنوبي فوق قاعدة اخرى فلا يُرى الّا حائطان مؤلفان من ألسنة الارغن وابواقهِ الكبيرة. واما منفخهُ فهو عظيم جداً موضوع في اسفل حائط صدر القاعة فهو ينفخ في القسمين على السواء. واظن انهُ لو نُفخ لملأ صوتهُ المدينة. والغريب انهم بنوا هذا القسم الذي يحمل الارغن ليستر باقي المذابح الصغيرة التي خلف البناء وعن جانبيهِ فلا يرى الجالس امامهُ سوى الهيكل الكبير ومن ورائهِ قاعة الارغن ومن فيها وعن جانبيهِ بابين كبيرين

اما ضخامة الابواب فهي بالغة حدّ الاعجاز لانها من الخشب المصفح بالحديد مسمرة بالمسامير الكبيرة الناتئة ومنها بابان غير مصفحين وقد اتقن الصنّاع عمل هذه

الابواب مع كبرها . اما الهياكل فهي كبيرة وصغيرة والكبيرة منها قد بنيت من المرمر والرخام فاجاد النحاتون في عملها كل الاجادة وان كنيسة مرسيليا الكاتدرائية مع جمالها ليست ككنيسة مالقة من حيث الصناعة والاتقان فضلاً عما فيها من الزينة النفيسة والطُرَف المستظرفة فكأن عظمة مالقة قد انحصرت في كنيستها

اما خارج الكنيسة فيدل على ان القواعد التي تشلمت زواياها هي اقدم عهداً من الجدران التي قامت فوقها والفرق ظاهر بين القديم والحديث . على ان في احد جدرانها من الشمال باب قديم يطل عن ساحة الكنيسة نحو مترين مما يدلُّ دلالة واضحة على وجود بناء سبق البناء الحالي ولعل ذلك البناء كان ديراً او كنيسة اذ يُرى من جانبيه نقوش قديمة تمثل صور ملائكة وغيرها . وفوق قنطرة هذا الباب تماثيل المسيح ومريم العذراء والرسل وتمثال للمسيح يحمل كرةً وعلى جانبيه شعار البابويَّة يحوط الكلَّ قنطرةٌ ناتئة حوت نقوشاً كثيرة فضلاً عن التخريم والمرانش وقد شوَّهت الأيام محاسن بعضها لقدمها

اما صدر الكنيسة فانهُ يذهل العقل فقد بُني على زاويتي الحائط قبَّتان عاليتان مؤلف كل منهما من ست طبقات من الاسفل حتى فوق تحوطها العواميد المضلَّعة وتعلوها الكرانيش والتماثيل . اما الطبقة السادسة فهي قبة ذات اربعة اقسام في كل قسم جرس فوقهُ ساعتهُ للدلالة على الاوقات . وقد دُهشتُ عند نظري باب الكنيسة الكبير الذي تزينهُ هاتان القبتان او البرجان فانهُ عجيب لم يترك الصنَّاع فيهِ مطمعاً لطامع . فهناك التماثيل والصلبان وصورة الثالوث الاقدس وشعار بعض البابوات واشياء كثيرة يعجز مثلي عن وصفها . اما الحائط الجنوبي فيلاصقهُ حائط متردم مما يثبت ان هناك بناء اخر اقدم عهداً من هذه الكنيسة العجيبة

وكانت الشمس مالت الى المغيب وقد تعبنا من الوقوف فقفلنا راجعين الى البحر وبعد مدة اقلعت بنا الباخرة تقصد جبل طارق

جبل طارق وجزيرة مادیرا

وفي ٢١ منهُ ظهر لنا جبل طارق على مسافة قليلة ووقفت الباخرة بعيدة عن المرفأ اذ لا يجوز لها الدخول دون رخصة ثم سمعنا طلقات مدافع فنظرنا الى حيث ارتفع

الصوت فراينا العَلَم الانكليزي قد انتشر فوق احدى البوارج الراسية داخل المرفاء واطلقت المدافع عند نزول العَلَم وارتفاعه له اجلالًا وترحيباً بالباخرة

ان جبل طارق لسان جبليّ داخل في البحر يمتدّ من الشمال الى الجنوب طولهُ لا يقلّ عن ثلاثة الاف متر وعرضهُ يزيد عن الالف وعلوه اربعمائة متر يتصل من الشمال ببلاد الاندلس وبينهما سهل منخفض والى غربيهِ مرفأ امين يصون شواطئ الجزيرة من صدمات البحر . ويقابل الجبل من جهة الغرب مدينة « الجزيرة الخضراء » التي عقد فيها ساسة اوربَّة المؤتمر الدولي في شؤون المغرب الاقصى . وعلى الجانب الغربي مدينة جبل طارق وكل مبانيها حديثة العهد وسكانها خليط من اليهود والاسبان والعرب وفيها الجنائن الفسيحة والحدائق الغنّاء فضلًا عن ان شوارعها نظيفة منسَّمة وفاكهتها كفاكهة لبنان حلوة المذاق والتين فيها اسود بقطع كبير مستطيل

والجبل مقسَّم الى رؤوس واكمات وعلى راس كل اكمة منهُ قلعة او موقع حربي تعلوهُ المدافع الكبيرة يراها الواقف فوق الماء وقد اشرأبّت اعناقها الطويلة تنظر الى البحر شزرًا . وفي بطون هذه الجبال الطرقات المتسعة تصونها الحواجز الحجرية من جانب البحر وتكسوها الاشجار الغضَّة حتى لا تكاد تظهر فيها الصخور . والجانب الشرقي منهُ شاهق قائم فوق البحر كالجدار كأن بعضهُ قُدَّ بزلزلة وجرفتهُ المياه وبقي البعض الآخر في مكانه

ولا يخفى ان جبل طارق اعظم حصون الدنيا لا تكاد بقعة منهُ تخلو من المدافع وهي عظيمة ترسل قنابلها الى كل جهات البحر وهي كالاكليل تكلَّلت بها هاماتهُ العالية ولقد خطر في فكري تذكار ذلك القائد العربي العظيم الذي فتح بلاد الغرب من هذا المعقل وهو اول من جعلهُ موقعاً حربيًا فسُمي باسمهِ « طارق » ولم يزل فيهِ برج قديم من تلك الحصون العربيَّة وهو فوق المدينة من جهة الشمال الشرقي . ولقد ذكرتني عينهُ ومنظرهُ مجد تلك الامَّة التي أتت غازية بلاد الغرب وافتتحت اهمّ اقسامهِ . والحق يقال ان هذا الجبل حصن حصين اقامتهُ الطبيعة نفسها وقد رسا اصلهُ فوق المياه كالجبار العظيم يهزأ بما حواليهِ من القوات

وقد مكثنا في جبل طارق مدة ست ساعات ولما رجعنا الى الباخرة رايناها قد

غصّت بالركّاب وكلهم من الاسبانيين والظاهر ان جبل طارق محطّة يقصدها الاسبان المهاجرون من بلادهم للسفر وقد ازدحم المهاجرون هذه السنة لان الحكومة تجمع العساكر وترسلها الى الريف في المغرب لمحاربة السكان فيها واخضاعهم وكان عدد الركاب المذكورين ٤٠٠ واكثرهم فقراء وزاد عجبي لقصر قامات الشعب الاسباني فلا تكاد ترى بين الاربعمائة راكب ستة او سبعة طوال القامة وهم يحلقون شواربهم. ولقد سمعت بعضهم يغنّون فتذكرت حداء العرب لجالهم وغناؤهم اشبه « بالعتابا » في بلادنا ولولا رطانتهم وعجمتهم لما ميّزتُهُ عن الغناء العربي القديم. وطريقة رقصهم قريبة كثيراً من رقص العرب

وقبل غروب الشمس سارت الباخرة وهي تئوء تحت حمل من الارواح فضاقت على رحبها وازدحم الناس أيّما ازدحام لكن ذلك لم يُلهني عن مراقبة البحر عند مغيب الشمس لانهُ كان كصفيحة من البلور يكاد يجمد من حرارة نورها. ومنظر المدينة جميل وحولها الخضرة والجنائن اليانعة. وفي ٢٢ منهُ كنا في الاوقيانوس الاتلانتكي وكانت امواجهُ تلاعب الباخرة ولم تكن تُحسب شيئاً مذكوراً مع عظمتها امام عواصفهِ وكان منظر الركاب محزناً فهذا يبكي وتلك تصيح والاسبان بعيالهم ينوحون وتعالت الامواج فوق الباخرة مما يشيب لمنظرهِ الولدان وترهبهُ الاسود وقد ملئت الارض باقيهِ حتى عافت نفسي الاكل والشرب وحُرمت النوم

وفي ٢٣ منهُ اكفهرَّ الجو وكانت الشمس تطلُّ من وراء حجابها احياناً ثم تحتجب وبعد قليل بدأت تظهر لنا سلسلة جبال وقد ارسلت عليها الشمس اشعّتها واخذت تبدو في قممها الاشجار وفي سفوحها العامر وفي هضباتها خضرة تلمع تحت نور الشمس فكان المشهد بهيجاً تنبسط لهُ نفس الراكب المسجون في البحر. وما لبثنا ان وقفنا امام مدينة زاهرة بالبنايات الجميلة كانها الحجارة الكريمة ترصّع ثوباً اخضر او الحصى في الماء الصافي وهذه المدينة تدعى « مادیرا » وهي عبارة عن اسكلة بحرية واقعة في سفح الجبل الذي يحوط بها وتشبه اسكلة جونية في كسروان

ولما وقعت عيني عليها خرجت الزفرات من صدري دون انتباه لانني شاهدت صورة من صور الوطن العزيز وانفتحت جوارحي كلها لاستنشق ريّا الوطن وحبّ اهلهِ. فيا « مادیرا » انت صورة الوطن المحبوب حيث يقيم من تحنّ اليهم الروح وقد

شممت من نسماتك رائحة الامّ والولد والاخ والاخت وشريكة الحياة. احبُّ ان تطول اقامتي مقابل جبالك لانها تعيد عليَّ ذكرى الصبا ومراتعهُ وصرت احنُّ اليك حنيني الى من يحدثني باخبار وطني. ها انا واقف امامك واخاف ان تفوتني نظرة من نظراتك وتحيلي بوجهك عني فتمضي هذه الساعات القلائل ولا تملأ العين من منظرك. فيك الوديان والهضبات التي تشبه وديان « صليا » وهضباتها وفي اعالي جبالك شجر السرو يناطح السحاب كأنها اشجار الصنوبر في الوطن الذي لي في جنباتهِ مواقف واحلام جميلة ليتها لم تمضِ

وفي ماديرا اصناف الفاكهة تحمل منها الباعة الى الباخرة العنب وهو لم يزل غير ناضج والأجاص والخوخ والتفاح والتين والاشجار فيها جميلة منظمة. وليس في المدينة بنايات عظيمة سوى قلعتين الاولى قائمة فوق جزيرة في البحر من الجهة الشمالية تتصل من احدى جوانبها بالارض اتصالاً صناعيًّا وقد رُفعت فوقها الاعلام الوطنيَّة والثانية الى الغرب وهي قلعة حربيَّة فوق البلدة قليلاً تطلُّ على البحر وفي جوانبها المدافع

اما عمائر البلدة فكلها جميل نظيف الظاهر تتلايل بينها اغصان السرو والليمون وفوقها الكروم. والظاهر ان لاهلها عناية خاصة بالزراعة لان الاقنية الحجرية والاسداد بادية للعيان. وفيها سكة حديدية تخترق المدينة على طولها وليس لها حوض ترسو فيهِ البواخر. وفيها الكنائس الفخيمة والقصور المنفردة العالية وفي اعلى الجبل دير عظيم تحدق بهِ الاشجار. وعند ما غابت الشمس اعتضتُ عن نور الشمس بالكهرباء التي تنير المدينة كلها حتى الطرق البعيدة فكان منظرها جميلاً للغاية ولا أغالي ان قلت انَّ ماديرا مدينة الشعراء وارض الهناء على انها ليست احسن جمالاً من لبناننا العزيز

السفر في الاوقيانوس

ثم رفع القبطان علامة السفر فبارحنا المدينة وفي النفس شوق اليها فودَّعناها واودعناها سلاماً ارقَّ من النسيم واخذنا نسير في الاوقيانوس ونحن نتوكل على الله العظيم. وكان الجوّ يصحو تارة ويكفهرُّ اخرى فتذكرت صفاء جوّ لبنان واعتدال طبيعتهِ وحسن نظامهِ فكل فصل من فصول السنة لهُ نظام ثابت اما في هذه الانحاء

فلا تقدر تميز الصيف من الشتاء والخريف من الربيع . وها نحن سائرون في عرض المحيط وقد أثر بنا التعب ولم يعذ يحلو لنا أكل ولا شرب ولا نوم

﴿ الركّاب ﴾ وقد حان لي ان اكتب شيئاً عن اخلاق الركاب وعاداتهم وازيائهم . فكان في الدرجات الثلاث الف راكب فيهم الفرنساوي والايطالياني والمكسيكي والاسباني والالماني والبرتوغالي والسوري والصربي والبلغاري والكلداني والارمني والتركي والمغربي . فكانت السفينة عبارة عن معرض بشري تعرض فيه اصناف الناس وازياؤهم ولغاتهم وشؤونهم وكان السوري اصلبهم عوداً شجاعاً يخشاه كل من رآه والسوريون يجتمعون على الغريب ويتفقون على مقاومته ومتى انفردوا بانفسهم تخاصموا وتنازعوا

وقد راينا ملابس البلغار والسرب والمغاربة على اختلافها وسمعنا لغاتهم وراياهم يرقصون ويغنون . ولقد اعجبني غناء الروس وهم يؤلفون جوقاً من الاصوات تختلف في العلو والانخفاض وهي متناسبة متوافقة يتألف منها « ارمونيوم » وعند نهاية الدور تصبح الاصوات كلها متساوية الّا صوت واحد ياتي بالجواب العالي وهو الطبقة العالية المقابلة للطبقة التي يتغنّى بها الجمهور . اما غناء البلغار والسرب فهو شبيه بالغناء الروسي ولكني سمعت بعض نساء اليهود الروس ينشدن نشيداً رخيماً يشبه قراره قرار النواح عندنا وهو قريب من لحن العشّاق التركي وهو اجمل غناء واطربهُ

﴿ البحّارة ﴾ لقد عرف الناس ان رعاع البحّارة قوم قساة لا يحترمون احداً وكان الركاب يقاسون من فظاظتهم ما هو امرّ من الصبر . فلمّا كان الحرّ يشتد قليلاً في بعض الليالي كان بعض السوريين يبقون كراسيهم في مكان جلوسهم مدة النهار فيرقدون عليها فراراً من رائحة مكان النوم لان اكثر الركاب قوم وسخون لا يعرفون للصابون وجهاً فضلاً عن ضيق المكان وعدم نظافته فانك لا تكاد تتحرك في سريرك حتى يضرب رأسك بسرير آخر فوقك . فعند الساعة الثانية بعد نصف الليل يبدأ البحّارة بالغسل فعوضاً عن ان يوقظوا الراكب يهدؤ يرسلون على ظهره الماء البارد المالح والانبوب واسع الفوهة فلا يشعر الراكب الّا وقد غمرتهُ المياه من كل جوانبه . لكن بعضاً من السوريين لم يمكنهم ان يطيقوا مثل هذا

فكانوا يهينون البحّارة بالضرب والشتم حتى امتنعوا اخيراً عن هـذه المعاملة وكان البعض الآخر يحتمل ذلك خوفاً ولا لوم عليه لانهُ من قوم الفوا الـذلّ فهم لشبه بالجثث المحمولة فوق خشبة البـاخرة. اما بقية الركاب من الدرجة الثالثة فكانوا كالماعز يرقدون تحت غطاء من السماء ويفترشون الارض اذلّاء بكل ما في الارض من الذل والبلاء.

وفي ٢٧ منهُ هدأ البحر وظهرت لنا سلسلة جبال فهلّل الركاب لانهم شاهدوا البرّ بعد ما غاب عنهم اربعة ايام متوالية فحمدت الله على السلامة وكانت هـذه الارض جزيرة « كابثرن » وليس فيها عمـارة وبعد ساعة ظهرت عن شمالنا جزيرة اخرى وعلى شاطئها قرية صغيرة تأخذ منها البواخر فحماً. وفي اليوم التالي ظهرت عن شمالنا جزيرة ايضاً ولمّا غابت الشمس هدأت حركة الركاب وسارت الباخرة تشقّ عباب البحر كانها سهم يخترق احشاء المياه فيرغي حولها ويزبد متعالياً ويرجع عنها مدحوراً

وفي ٢٩ منهُ سقط المطر وعَصَف الريح وهاجت امواج البحر ومن العجب ان يسقط المطر في اشد شهور الصيف حرًّا ولكن هذا شأن الطبيعة قرب خطّ الاستواء. وفي ٣٠ منهُ صفا الجوّ واعتدل الطقس وتساوى النهار والليـل فكانت تشرق الشمس عند الساعة السادسة وتغيب في مثلها مساء

وفي اول آب كنا في عرض ١٠° و٢١' دقيقة ولم يبقَ لنا الى باهيا سوى مسيرة ٩١٤ ميلًا وتساقط المطر وتعالت الامواج كأن البحر يريد ابتلاع السفينة وفوقتُ فوق القدم لارى كيف يتلهى البحر حين هياجهِ بالباخرة وبالارواح التي عليها. فكان المنظر رهيباً والنفس تخشى الموت فـلا تتمالك من البكاء ولكن تعقبها بالله تحيي فيها ميّت الرجاء فهو يخلصها من الضيق ويوصلها بسلام الى الميناء. ولم تبرح من خاطري قسارة البحـارة وجحودهم وخفت ان يدهمنا غضب الله بسببهم وذكرت قول ابن سيراخ: « يا بني لا تساكن الشرير لئلا ينزل غضب الله عليهِ وعليك » فقلت: « اغفر لهم يا رب فانهم لا يدرون ما يعملون »

البرازيل

وفي ٢ منهُ ظهرت لنا اليابسة عن يميننا وهي لا تكاد تُرى بالعين المجرّدة ولا يقدر الشاعر ان يصور مـا قام اذ ذاك في نفوس الركاب من عواطف السرور

وراكب البحر يؤنسهُ منظر الارض لانهُ يعتصم بها من امواج البحر حينما تثور لابتلاعهِ فشكرنا الله تعالى لانهُ حفظ حياتنا . وفي ٣ منهُ اخذت الباخرة تدنو من الشاطئ البعيد وسرنا نحو لربع وعشرين ساعة امام ارض البرازيل ولم نستطع ان نميزها اهي آهلة ام ارض جرداء . ثم نظرنا اليها بالنظّارة فاذ هي تربة كلسيَّة تكسوها الاحراج المتلاحمة الاغصان تُرى جذوعها الضخمة مع بعدها عنّا وليست هذه الارض سوى تلال متساوية في العلو وبينها وهاد منبسطة . وهذه حالة ارض البرازيل فانها جبلية ولكنها اشبه بارض مصر وقد قامت فيها الاهرام

﴿ باهيا ﴾ ثم رست الباخرة امام باهيا (Bahia) بعيدةً عن الارض وليس لهذه المدينة مرفأ صناعي بل مرفأ طبيعي وهو عبارة عن جون بعيد الغور متّسع الاطراف لا تتحرك امواجهُ مهما هاج البحر . وهذه المدينة عاصمة ولاية تدعى باهيا باسم المدينة كانت ايام الملكية عاصمة البلاد البرازيلية لتوسطها بين الولايات في ذلك العهد وكان لها مجد مضى وبقي منهُ القصور الفخيمة والكنائس الضخمة القديمة . وقد اخذت في هذه الايام ذكرًا دلّ على الالسنة لقيام الشعب البرازيلي بالاكثرية على انتخاب رجل البرازيل الوحيد السنيور « روي بربوزا » لرئاسة الجمهورية وهو من باهيا من الرجال العظام الذين حفظوا كرامة الامة والدولة سياسي محنك مشهود لهُ من ساسة اوربا فضلًا عن شهرتهِ الواسعة في التشريع والقوانين . لقد عاصر اواخر الحكومة الملكية وتولى اكبر مصالحها مثل مستشار الدولة الملكية لكن الحكومة الحاضرة واحزابها قاموا عليهِ وغلبوه في امر الانتخاب بعد ان كادت تهدّد البلادَ حربٌ ضروس لان الشعب يطلب هذا الرجل والحكومة وانصارُها القليلون لا يريدونهُ ففازوا بالحيلة واقاموا المارشال هرمس

وكانت هذه المدينة واقفة امام البحر بقصورها وقلاعها القديمة ومعاملها كانها تسلّم على البحر وهو يقبّل راحتيها . وموقعها فوق رابية يشرف منها قسم على البحر وهي منقسمة الى قسمين سفلي وعلوي وتراها تمتد طولًا امام البحر وتنعطف عليهِ من بعض جهاتها وبين القسمين جنان في المنحدرات والموصل بينهما طريق التراموي تصعد عربتهُ وتسقط الاخرى لارتفاع المكان فهي تشبه بالمصعد الذي اتخذه

اهل مرسيليا للصعود الى كنيسة سيدة النجاة . ويوجد مُصعد اخر يوصل بين اسواق المدينة من الجهة الثانية

وكان منظرها جميلًا لا سيما في الليل لان الانوار الغازية والكهربائية تنير المدينة ولاتساق البنايات والشوارع كانت ضياؤها في قسميها تظهر ليلًا صفوفاً صفوفاً يطر بعضها البعض آية في الجمال وفتنة للناظرين

وبارحت الباخرة مرفأ باهيا قاصدة ريوجانيرو العاصمة ثم طلعت الشمس من وراء البحر كانها غادة يكللها النور والنسيم العليل يهوّم منشدًا انشودة الصباح للطبيعة والبحر يحدج الارض بعينهِ الزرقاء فقلتُ : تبارك الله الذي خلق هذا الجمال وهذه العجائب تخبر بعظمتهِ

وفي ٥ منهُ صفا الجو فكان ذلك اليوم من اجمل ايام سفرنا واصبح البحر كانهُ قطعة واحدة لا يحركها شيءٌ الّا ما يرسلهُ النسيم من القبلات فوق المياه والباخرة تسير بسرعة ولا يشعر بها الراكب فكأن البحر اراد مصالحتنا قبل ان نبارحهُ فودّعنا مكفرًا عما جنتهُ امواجهُ وعواصفهُ

ريوجانيرو وفي ٦ منهُ بعد ان غابت الارض عنا اربعاً وعشرين ساعة بدأت تظهر لنا جبال راسية في الماء وهي تتجلى امامنا كعرائس البحار ثم اخذنا نقترب من العاصمة وجبالها التي تحوطها كحصن طبيعي . اما الشواطئ القريبة منها فكانت مشهدًا غاية في الجمال فهناك جبال تناطح السحاب برؤوسها وهي اشبه بالخيالات التي كان يتصورها اليونان والرومان من صور الجبابرة تحرس البحر وهي كاهرام مصر لكن يكلّل هاماتها الاشجار والمدافع . وبعد الظهر دخلنا مضيقاً في البحر واخذت تظهر عمائر العاصمة والبحر يتسع امامنا حتى خُيّل لنا اننا دخلنا بحرًا جديدًا لان مرفأ المدينة متسع والماء فيهِ هادئ لا يتحرّك . وكنا نشاهد حولنا جبال شامخة في بطونها قلع صغيرة تشبه المخافر وامام كل مخفر تنّور محشو بالمدافع وهو مدور ستفهُ كروي وقد مدت المدافع رؤوسها من جوانبهِ الى البحر كانها الافاعي . وهكذا قل عن اعالي الجبال فانها مكلّلة بالقلاع فكان المشهد مهيباً لانني لم اسع بسور طبيعي كهذا السور فانك متى مررت في المضيق يخيّل لك ان الجبال تسقط عليك لانها قُدّت قدًّا محكماً كانها حائط متساوي البناء مع علو عجيب . اما هذه

الجبال فهي صخرية ورملية نبتت فوقها الاشجار الباسقة تلطّف شيئاً من هيبة المشهد وبعضها مؤلف من حجر اسود

وهكذا قل عن الجبال التي تحوط البحر امام المدينة التي يتألف منها المرفأ وكان امامنا قلعة عظيمة مبنية بين جبلين مرتفعة من ثلاثة اقسام وهي قلعة معدّة لسكن حامية العاصمة واعظم تلك القلاع قلعة « برناگراندي » مقابل العاصمة يفصل بينها البحر ولم تقتصر الطبيعة على انها صانت البحر امام العاصمة بل انها تصون العاصمة بجبال تحوطها فهما كانت القوات البحرية لا تنال من العاصمة مراماً لان الموقع حصين منيع

ولما اقبلنا على المدينة ظهر لنا منظرها العمومي وهي تمتدُّ طولاً ثم تنحني من احد اطرافها حول البحر وقد انتشرت فيها البيوت مسافة لا يدرك الطرفُ اخرها وكانت الشمس قاربت ان تغور في اليمّ وقد تكسّرت اشعّتها على القصور والمنازل التي حاطت البحر فقلدتهُ بعقد من الالماس اللامع والبحر يلمع لمعانها بلون ذهبي لتكسُّر اشعة الشمس عليهِ مما ياخذ بمجامع القلب

ولقد احسن البرازيليون ببناء قصورهم الفخمة على الشاطئ حيث يرى القادم الجديد اجمل ما تقع عليهِ العين من الخمائل التي تكتنف هذه القصور وقد جُبلت على اكمل ترتيب وبنوا في سفح جبل من الجبال المحدقة بالعاصمة معرضاً عمومياً مؤلفاً من اربعة وعشرين قسماً كل قسم منها قائم بنفسهِ يسع الالوف من النفوس وتكفلت كل ولاية ببناء قسم خُصَّ بها تعرض فيهِ مزروعاتها ومصنوعاتها من كل جنس ونوع. والى جانب هذه المباني مركز الوزارة الحربية بني كلهُ من الحجر الاسود البرازيلي وطُلي من الخارج بطلاء ابيض يجعل الحجر لامعاً وتظهر نقوشها كانها منحوتة فيه وعلى الجملة فانها غاية في الصناعة والاتقان

وعند الساعة الرابعة افرنجية حللنا ارض البرازيل وحمدنا الله تعالى الذي يجب حمدهُ على وصولنا بالسلامة فبعد ان قامت علينا قوات البحار تريد ابتلاعنا وطئنا ارض البرازيل وفي النفس حزن على فراق الوطن والاهل والاصحاب حتى اذا خرجنا من القارب راينا على الرصيف احد افنار البوليس يرقب حركات السائرين ولم يكن

يسمع على الينا حركة البتة فليس هناك بجّارة تزعجك ولا لصوص تنهبك بل هدوء متواصل وسكون دائم

قضيت في العاصمة مدة عشرة ايام جلتُ في خلالها لسواقها الرحبة وشاهدت الاماكن التي تستحق الذكر يرافقني ابن العم عبدو مخايل . واذا وفق الله وصفت في وقت آخر ما في العاصمة من الطُرَف وحالة سكانها لان العاصمة عنوان البلاد وساكنيها مثال للامة كلها . والله المسئول ان يقيّض لنا العود بسلام الى الوطن المحبوب انهُ السميع المجيب

زراعة التبغ التركيّ في لبنان

للشيخ يوسف افندي الجميّل الاجنائي القانوني ورئيس اعمال المختبر الكيماوي سابقاً (تابع)

غلب على الجمهور نوعٌ من الهوس فخيّل لهُ انَّ اصلح تربةٍ لزراعة التبغ (الدخان) انما هي الحمراء اللون . وذلك خطأ لأن اللون احدى الصفات العرضيَّة . ومن الشروط الجوهريَّة لصلاحيَّة التربة لزرع التبغ ان تكون سهلة التفتيت كثيرة المسامّ خفيفة خصبة معرَّضة للشمس (شميسة) فان جمعت التربة هذه الصفات وهي بيضاء فلا بأس منها فانَّها تُعتبر موافقة للتبغ . وعلى عكس ذلك تُعدّ التربة الحمراء غير صالحة لزرعهِ اذا كانت صلصاليَّة (دلغانيَّة) صلبة تتعمَّق شقوقها عند الجفاف . على انَّهُ لا ينكر انَّ وجود قليل من الحديد في التربة مفيد جدًّا للتبغ . والدليل عليهِ انَّ اجود الاراضي لزرعهِ انَّما هي الضاربة الى حُمرة متوسّطة بين اللون الفاتح واللون القاتم لاسيما ذات اللون القرمزي فانَّها التربة الفضلى

واعلم انَّ هذه التربة الحمراء السهلة التفتيت والخفيفة المعرَّضة لأشعَّة الشمس تكون اشكالًا يوافق كل شكل منها ضروباً خاصَّة من الدخان وهذا ما ينبغي علينا بيانهُ الآن

موافقة انواع التربة لانواع التبغ

يُقسم التبغ في اعتبار التجار الى ثلاثة اقسام عظيمة يحتوي كل قسم منها انواعاً متعدّدة في اصطلاح علماء النبات